5 تجار السكينة

في الوقت الذي اندفع فيه الطراد إنديانابولس داخل ميناء أبرا Apra في غوام، أبحرت الغواصة 58 - ا، في طريقها من غوام إلى لايته وتبعت الطراد ببطء باتجاه الغرب. كان الآمر هاشيموتو مكتئباً فقد كانت مهمته مهاجمة سفن العدو قرب الساحل الشرقي لجزر الفلبين حيث كانت القوات الأمريكية تنشىء أسطولاً للغزو. وفي الوقت نفسه، كان على الغواصات المثيلات لمجموعة تايمون الطواف في مناطق أخرى. كانت إحدى هذه الغواصات هي 53 - ا، التي أبحرت من كيوره قبيل إبحار 58 - ا، وانحرفت لتقوم بأعمال الدورية في المنطقة الواقعة شرقي أوكيناوا.

كانت غواصة هاشيموتو تحمل عادة كمية كافية من الوقود تسمح لها بالمكوث في البحر زهاء ثلاثة أشهر في كل مرة. ولكن بات الوقود الآن نادراً للغاية لدرجة أنه لا يكفي لشهر واحد. ولذلك بدلاً من الطواف على مهل حول البحر للبحث عن سفن للعدو، تعين عليه أن يسلك أكثر الطرق مباشرة باتجاه مفترقات الطرق المختلفة في المحيط الهادىء وأن يتربص لاقتناص فريسة.

لم يطرأ تبدل على حظ هاشيموتو حتى الآن وبدا أن الحرب قد تضع أوزارها قبل أن يسجل ضربة مميتة واحدة في خدمة الإمبراطور. ومع ذلك، لم يكن أحد ليلومه على سوء طالعه، ربما عدا بعض الآلهة الساخطين. فقد أبلى طاقمه بلاءً حسناً. فليس هناك ضابط طوربيد أكثر مهارة من مساعده المباشر توشيو تاناكا. كما لا يوجد ملاَّح أفضل، أو على الأقل أكثر حماسة، من الملازم هيروكوتو تاناكا Hirokoto Tanaka (لا توجد صلة قرابة بينه وبين توشيو). كان هيروكوتو صغير القامة وذا ابتسامة جاهزة ومتفائلة وكان بحاراً متمرساً رغم أنه لم يتجاوز بعد الحادية والعشرين من العمر. وكان على متن حاملة الطائرات أونيو Unyo عندما هاجمتها غواصة أمريكية بقذائف الطوربيد في كانون الثاني / يناير 1944، وقتلت ثلاثين رجلاً وأصابت نحو ستين. وبعد أن خدم على متن حاملة الطائرات كايو Kaiyo، التحق بمدرسة الغواصات وعين للخدمة على الغواصة 58 - I، التي ساعد هو في بنائها.

مع أنه لا زال شاباً، فقد كان موهوباً بثقة بالنفس ربما أكثر من أي رجل آخر على متن الغواصة. وكان على قناعة بأن الأمريكيين سيقومون بغزو اليابان وبهزيمتها في نهاية الأمر، ولكن بعد أن يكون كل ياباني قد دافع عن الوطن بالسيوف والرماح والعصي. سيقاتل اليابانيون حتى آخر رجل وامرأة وطفل... وفي واقع الأمر، ليس حتى آخر رجل تماماً إذ كان يتوقع أن يظل على قيد الحياة مهما حدث لبقية السكان. فقد كان هيروكوتو تاناكا مقاتلاً في غاية الذكاء لدرجة أنه لن يموت.

شعر هيروكوتو، بصفته ضابط الملاحة، بأنه يعرف بالضبط أين وكيف يقاتل. كانت له معرفة وثيقة بالمحيط الهادىء أشبه بمعرفته بمسقط رأسه، طوكيو. وعقب دراسة تقارير الاستخبارات، كان على اطلاع بالمسارات التي تسلكها السفن الأمريكية أسوة بالأمريكيين أنفسهم. وبما أنه هو الذي رسم خطة تفصيلية لكل مسار ومفترق طرق تسلكه الغواصة 58 - I، كان واثقاً هذه المرة من أن غواصته سوف تسجل ضربة واحدة على أقل تقدير.

لكن لم يكن هاشيموتو واثقاً بنفس القدر. كان أشد ما يخشاه هجوماً تشنه غواصات العدو. كانت غواصته، خلافاً للغواصات السابقة، مزودة برادار جوي وآخر سطحي لتحذيره من أية سفينة تقترب من الغواصة. ولكن ستكون للعدو الميزة في لعبة القط والفأر. ويمكن للولايات المتحدة أن تتحمل فقدان غواصة بينما لا يمكن لليابان تحمل ذلك، وبالتالي لن تجازف اليابان بنفس القدر.

بعد مغادرة كيوره، سلكت غواصة هاشيموتو مساراً ملتوياً بسرعة فائقة، وأخيراً سلكت طريق سايبان ـ أوكيناوا. وكما جرت عليه العادة، أقيم حفل عشاء وداعي لرجال الكايتن الذين كانوا تواقين للموت مثل أسلافهم. كان البحر هادئاً تحت ضوء القمر المنير وبدت الظروف مثالية لتنفيذ ضربة، باستثناء شيء واحد ألاَ وهو عدم وجود أية سفينة عدوة على مسافة قريبة من الغواصة.

كان هيروكوتو تاناكا مقداماً لا يهاب. وأشار إلى وجود مسارات أخرى أخذ يرسمها على خريطته الملاحية. وفي 22 تموز / يوليو،

كانت الغواصة تمخر عباب البحر على طريق أوكيناوا ـ غوام وكان القمر أقرب إلى البدر وأشد سطوعاً.

تبودلت الأنخاب للمرة الثانية على شرف رجال الكايتن وبدا النجاح مؤكداً. ولكن ظل الأفق هادئاً مرة أخرى. وعندما أخذ القمر يشحب، بدا القلق على هاشيموتو بشأن الآلهة الحانقين، واتجه إلى محراب السفينة للصلاة وللتضرع إلى الآلهة ولو بتحقيق غنيمة واحدة للإمبراطور قبل نفاد الوقود. ثم اتجهت الغواصة نحو مسار غوام ـ لايته وقد تكون هذه الفرصة الأخيرة لتحقيق الهدف الإلهي الذي ما برح يدغدغه منذ بدأت الحرب.

لعل ثقة هاشيموتو ستكون أقوى لو علم أنه قبل ثلاثة أيام أي في 24 تموز / يوليو، أغرقت الغواصة I - 53 سفينة ـ بالتعاون مع السفينة نفسها. فقد أطلقت الغواصة طوربيداً بشرياً باتجاه المدمرة «أندرهل» Underhill التي كانت ترافق قافلة من خمس عشرة سفينة أصغر حجماً من أوكيناوا إلى لايته. ولدى إمعان النظر بواسطة منظار الأفق، اعتقد قبطان المدمرة خطأ أن الطوربيد هو غواصة قزمة فصدمها بقوة. وأدى انفجار الطوربيد إلى شطر المدمرة إلى نصفين وقتل 119 رجلاً. وأنقذت السفن المرافقة في القافلة 109 رجال آخرين ـ وكان من الممكن أن يلقى هؤلاء الرجال حتفهم أيضاً لو كانت المدمرة مبحرة بمفردها.

كان العميد البحري جيمس ب. كارتر James B. Carter، مساعد الأميرال نيمتز للعمليات عنيداً. وأخبر الكابتن مكڤاي في المقر

المتقدم للقائد العام في غوام بأن عليه المغادرة إلى لايته في موعد أقصاه صباح اليوم التالي الموافق 28 تموز / يوليو. أراد من مكفاي التوجه إلى هناك في أسرع وقت ممكن. وفي لايته فقط، يمكن لرجاله الحصول على دورة تحديث المعلومات التي فاتتهم في سان دييغو. وكان الأميرال سبروانس يريد استعادة سفينة القيادة ولم يكن هناك وقت لإضاعته.

لكن أصر مكفاي على موقفه موضحاً أن الطاقم والمجندين على وجه الخصوص بحاجة إلى تدريب لتحديث معلوماتهم دون تأخير حتى وإن كان الطاقم قد حصل على بعض التدريب على متن السفينة. وتساءل لماذا لا يستطيع رجاله البقاء في غوام لحضور الدورة، إذ إن إرسال أفراد أغرار إلى منطقة خطرة دون تدريب كهذا ينطوي على مجازفة. وكما روى لاحقاً: «أدليت بملاحظة مفادها أنني بوتيرة السرعة التي أبحر بها، ربما تجري دورة تحديث المعلومات في خليج طوكيو. ولكنهم (ومن الواضح أنه كان يعني كارتر) قالوا (كلا سوف نرسلكم إلى لايته من أجل التدريب المطلوب إذ لم نعد نقدم مثل هذا التدريب هنا في غوام)».

ولم يقدم كارتر أية معلومات عن الظروف الأمنية السائدة في الطريق ويبدو أن مكفاي بدوره لم يطلب مثل هذه المعلومات. وعلى أية حال، سيزوده مدير الميناء والضابط المسؤول عن تحديد المسار بمثل هذه المعلومات بشكل روتيني قبل مغادرته. كما أن تأكيد كارتر

على ضرورة التعجيل بالمغادرة أوضح بجلاء لا لبس فيه أن السفينة لن تواجه أي خطر داهم أثناء الرحلة.

كان كارتر في واقع الأمر مطلعاً على معلومات سرية كان مكفاي بحاجة حيوية إليها فيما لو كان عليه اتخاذ الاحتياطات الأساسية لرحلة آمنة على نحو معقول ـ معلومات ربما كان من شأنها حتى تبرير إلغاء الرحلة أو على الأقل تغيير مسارها الاعتيادي. كان يعلم بوجود نحو أربع غواصات يابانية تتجول في المنطقة العامة بين اليابان وجزر الماريانا، ومجموعة بالاو والفلبين وأن هذه الغواصات، خلافاً لتلك التي كانت في الماضي، قد أرسلت بهدف مهاجمة سفن العدو وليس لمجرد تسليم إمدادات للجنود اليابانيين التي انقطعت بهم السبل. كما كان على إطلاع بأن إحدى هذه الغواصات كانت تطوف على بعد بضعة أميال من المدمرة أندرهل في اليوم الذي غرقت فيه السفينة ـ على الرغم من أن هذه المعلومات كانت من السرية بمكان بحيث إن قبطان السفينة التي تعرضت للخطر لم يبلغ قط بهذا التهديد. وكان العميد كارتر يعرف أيضاً أن غواصة هاشيموتو 58 - I، كانت تشكل خطراً مماثلاً للطراد إنديانابولس أثناء توجهه إلى لايته.

كان كارتر على إطلاع تام بأسرار البحرية إذ إنها كانت ترد إلى القائد العام لأسطول المحيط الهادىء مباشرة من واشنطن من الكابتن وليام ر. سمدبرغ الثاني William R. Smedberg II، مساعد رئيس الاستخبارات البحرية، ثم تصل المعلومات إلى الكابتن إي. تي. لايتون E. T. Layton، ضابط الاستخبارات القتالية للقائد العام الذي

يبلغها بدوره إلى العميد البحري. إن موقف كارتر اللامبالي إزاء التهديد كان يعكس على ما يبدو موقف رئيسه المباشر، نائب الأميرال تشارلز هـ. ماكموريس Charles H. McMorris، رئيس أركان نيمتز، الذي شرح الوضع فيما بعد على النحو التالي:

«لا أعرف الآن مدى دقة تلك المعلومات، كما أنني لن أكون في غاية الانزعاج لو لم أعرف... إن أي إبحار [في تلك المنطقة] ينطوي بالضرورة على درجة معينة من الخطر، ولكن كون غواصة أغرقت سفينة على مسار معين لن يكون رادعاً بشأن مسار سفن أخرى تمر في تلك الطريق بعد بضعة أيام».

ولكن في حين قد يكون كارتر علم شيئاً من رئيسه، فقد كان أقل صراحة. وحينما سئل لاحقاً لماذا لم يخبر مكڤاي، رد قائلاً:

«لم يكن قد تحدّد المسار الذي كان عليه سلوكه. وفي واقع الأمر، لم يكن قد تقرّر حتى آخر لحظة ما إذا كان سيذهب إلى لايته أم لا. وكان مقرّراً أن يكون الطراد إنديانابولس السفينة الرئيسة لقيادة الأسطول الخامس ـ وكان ثمة سبب يجعل من المحبذ إبقاء الطراد في غوام لكي يكون متاحاً للأميرال سبروانس عندما يصبح مستعداً للإبحار».

وحين سئل لماذا لم يخبر كارتر مكڤاي بعدم التيقن هذا بدلاً من إصدار الأوامر إليه بالتوجه إلى لايته «في أسرع وقت ممكن»؟ كان تصريح كارتر محيراً على نحو خاص في ضوء ما قاله سبروانس. تناول مكڤاي طعام الغداء مع سبروانس وكبار ضباطه في مطعم

الضباط مباشرة بعد حديثه مع كارتر، ولم يتساءل الأميرال عن مغادرة مكڤاي إلى لايته كما أنه لم يقل إن على مكڤاي الرحيل بدون تأخير.

ومن الغرابة بمكان أن سبروانس، شأنه شأن كارتر، لم يذكر لمكڤاي الغواصات الأربع التي تحدثت التقارير عن وجودها في المنطقة، أو إغراق المدمرة أندرهل. فهل أهمل رؤساء أقسام القيادة العامة في تمرير هذه المعلومات الحيوية إلى سبروانس، رغم أن سفينة القيادة التابعة له كانت على وشك الإبحار في تلك المياه الخطرة؟ أم كانت هذه المعلومات في جعبة الأميرال ولكنه شعر، مثل ماكموريس وكارتر، أنها لم تكن هامة بما فيه الكفاية (وأنها كانت كما يبدو من السرية بمكان على أية حال) لإبلاغها إلى مكڤاي؟

يبدو أن مسؤولاً بحرياً واحداً فقط هو الذي أخذ تقرير الاستخبارات على محمل الجد. إنه الكابتن صموئيل كلاي أندرسون Samuel Clay Anderson، ضابط عمليات الأسطول الخامس التابع لرئيس العمليات البحرية في واشنطن. كان أندرسون مذعوراً حين علم بمصير المدمرة أندرهل. فقد أعد مسودة برقية إلى الأميرال نيمتز يوصي فيها بأن تغير القيادة العامة المسارات الحالية في غربي المحيط الهادىء وذلك بسبب الخطر الذي تشكله الغواصات. ولكن رئيس أندرسون، الأميرال ر. اس. إدواردز R. S. Edwards، نائب رئيس العمليات البحرية، أوقف البرقية، وأشار ضمناً إلى أن المسألة ستنظر فيها سلطة أعلى يحتمل أن تكون أميرال الأسطول أرنست ج. كنغ

Ernest J. King، رئيس عمليات سلاح البحرية. ولكن يبدو أن البرقية لم تصل قط إلى نيمتز.

وكما هو الحال بالنسبة للمدمرة أندرهل، لم يكن الشك وحده هو الذي حال دون وصول المعلومات عن خطر الغواصات إلى الرجل الذي كان يحتاج إلى معرفة ذلك أكثر من أي شخص آخر، إذ من المثير للسخرية أن تصنيف المعلومات من الناحية الأمنية على أنها فائقة الأهمية لعب دوراً أيضاً. قلة من رؤساء الإدارات ورؤساء الاستخبارات كانت تعتبر جديرة بالثقة لإبلاغها المعلومات. وبالتالي، ذهبت المعلومات من العميد كارتر في مكتب القائد العام إلى الكابتن أوليفر ف. ناكوين Oliver F. Naquin، ضابط العمليات السطحية لقيادة جزر الماريانا، التي كانت تخضع لمكتب القائد العام. وضع ناكوين المعلومات في خزانة الملفات لديه وتركها هناك. ولم يمرّرها حتى لرئيسه نائب الأميرال موراي.

ولما كان ناكوين هو الذي يحدّد على الخرائط تحركات السفن الصديقة والعدوة في منطقة جزر الماريانا فقد كان عليه معرفة كل ذرة معلومات قد تساعد في حماية السفن الأمريكية في المنطقة. تطلع على معلوماته عادة إدارة الاستخبارات لقاعدة غوام البحرية ومن ثم مدير ميناء القاعدة وضابط تحديد المسارات الذي يعمل تحت إمرته، الذي بدوره ينقل المعلومات إلى ربابنة السفن. ولكن التقارير الموشحة بعبارة «فائقة السرية»، نادراً ما كانت تغادر مكتب ناكوين.

كان ناكوين في واقع الأمر مخولاً بأن يمرّر حتى هذه التقارير إن كان ذلك ضرورياً ـ ولكن دون ذكر تفاصيل يمكن أن تعرض مصدرها للخطر. كان ضابطاً توشح صدره أوسمة كثيرة ـ وبعد أن قاتل ببسالة، بقي على قيد الحياة بعد إغراق الغواصة سكوالس Squalus وقصف السفينة القتالية كاليفورنيا في بيرل هاربر. ولكنه كان حذراً جداً ويعاني من عقدة الشك والخوف بخصوص المسائل الأمنية لدرجة أنه يبدو مستعداً لتعريض سلامة أية سفينة للخطر في سبيل المحافظة على استقامة النظام. وعلى أية حال، كثيراً ما كان ناكوين غير واثق من معلوماته، إذ غالباً ما كان يطلق أناس عديدون استغاثات كاذبة. وقال في وقت لاحق: «كنا نتلقى باستمرار تقارير عن مشاهدة غواصات في سائر أرجاء المحيط الهادىء في جميع الأوقات، ولكن بالنظر إلى العدد القليل للغاية من عمليات الإغراق هناك، فإن الاستنتاج العام المستخلص هو أن ربابنة السفن التجارية [الذين كانوا يبلِّغون عن معظم المشاهدات] كانوا يبلِّغون عن أشياء لم تكن موجودة بالفعل».

ولكن ماذا كان تأثير المعلومات عن غواصات العدو الأربع وعن إغراق المدمرة أندرهل على عمليات مكتب ناكوين؟ كان رد ناكوين أن ليس لها أي تأثير.

عندما توقف الكابتن مكڤاي في قاعدة العمليات البحرية بعد الغداء للتحدث عن تفاصيل رحلته مع مدير الميناء، استقبل في مكان تسوده السكينة. فقد استقبله في كوخ كونست الملازم جوزيف

والدرون Joseph Waldron، ضابط تحديد المسارات التابع لمدير الميناء. وأكد والدرون للزائر أنه سيعرض عليه إيجازاً وافياً يجيب على جميع الأسئلة. ثم استدعى والدرون اثنين من موظفيه لإطلاع مكفاي.

لم يرد أي ذكر للغواصات الأربع التي يحتمل أن تكون متربصة قرب المسار الذي سوف يسلكه مكفاي كما لم يرد ذكر لما حل بالمدمرة أندرهل. وبما أن ناكوين لم يخبرهما، فإنهما لا يعرفان أي شيء عن التهديد. وبالفعل، تحدثا عن الرحلة وكأنها ستكون رحلة ترفيهية إن لم تكن أكثر من ذلك بقليل.

سأل أحد الرجلين مكفاي عن الوقت الذي يرغب فيه بالمغادرة. ويبدو أن السائل لم يكن يعرف أن العميد كارتر كان قد أمر مكفاي بالمغادرة في الصباح. كان مكفاي مرتبكاً ومحتاراً ولكنه هدأ من روعه إذ لو كان هناك أي خطر، لكانا أخبراه عن وقت مغادرته وليس سؤاله متى يريد المغادرة.

أجاب مكفاي إن المغادرة قرابة الساعة التاسعة ستكون ممتازة.

وحين سئل عن السرعة التي يتوخاها، أحسّ مكفاي بمزيد من الاطمئنان، إذ لو كانت هناك غواصات عدوة متربصة لأوصاه الرجلان بالتأكيد بسرعة تزيد عن 16 عقدة، وهي السرعة التي يسمح بها عادة للسفينة في هذه الأيام الشحيحة بالوقود.

قال مكفاي إنه يود دخول خليج لايته عند شروق الشمس لكي

يتمكن رجاله من التدرب على المدافع قبل النزول إلى البر. لذلك، إذا أبحرت سفينته بسرعة 15,7 عقدة، ستصل عند فجر يوم الثلاثاء الموافق 1 آب / أغسطس.

أراد مكڤاي أن يعرف المسار الذي عليه أن يسلكه. طلب إليه أن يسلك المسار المباشر، المسمى مسار «بدي» Buddy، إذ لا داعي لسلوك مسار ملتو وإضاعة الكثير من الوقت.

كانت هذه الإجابة مبعث مزيد من الاطمئنان لمكڤاي، إذ هل يعقل أن يخبراه باتباع مسار يعتبرانه خطراً.

لم يرد أي ذكر عن احتمال تخصيص مدمرة لمرافقة الطراد إنديانابولس ولكن لم يسبب هذا الإغفال إزعاجاً كثيراً لمكڤاي بل اعتبره تأكيداً إضافياً بعدم وجود خطر حقيقي. لم يكن الطراد إنديانابولس مزوداً بأجهزة صوتية تحت الماء، شأنه في ذلك شأن معظم الطرادات الأخرى، ولكنه كان مجهزاً برادارات بحث سطحية وهوائية. وإلى جانب ذلك، فإن من شأن سفينة مرافقة إبطاء سرعة الطراد، وربما تجعله أكثر عرضة لهجوم عدو، كما أنه نادراً ما أبحر مع سفينة مرافقة، حيث إن السفن الأصغر هي التي تزود بمرافقة، ولكن الاعتقاد الشائع هو أن بمقدور الطرادات الاهتمام بنفسها. وعلى أية حال، هناك نقص في سفن المرافقة بالنظر إلى كثرة عدد السفن التي كانت تتهيأ لغزو اليابان.

ومع ذلك، لاحظ مكڤاي أنه يفضل الإبحار بصحبة سفينة أخرى

إن كانت تسلك مسار طراده، إذ يمكنه استخدام السفينة الأخرى لتحاكي سفينة عدوة في تمارين التدريب أثناء الطريق.

أبدى والدرون تعاطفاً وقال إنه لا يعلم عن وجود سفينة كهذه ولكنه اتصل هاتفياً بناكوين للاستفسار عن ذلك. أجاب مساعد ناكوين بأن لا داعي لسفينة مرافقة.

كان والدرون يتوقع هذا الرد وهو الذي حدّد مسار أكثر من خمسة آلاف سفينة حتى الآن أثناء الحرب ـ رغم أن سؤاله انطوى فقط على معرفة وجود سفينة قد تكون متجهة إلى لايته [في واقع الأمر، كانت ثلاث سفن ستقوم بالرحلة خلال اليومين التاليين]. ولكن مكڤاي لم يلح في السؤال. وشعر بالأسف لإضاعة فرصة إجراء مزيد من التمارين ولكن ما من شيء سمعه جعله يشعر بأنه يحتاج حقاً إلى سفينة أخرى ترافقه من أجل الحماية.

وعندما طلب مكڤاي «معلومات عامة» عن الأخطار المحتملة، أجاب أحد الرجلين نافياً وجود أي شيء غير مألوف في المنطقة. تصور مكڤاي أن الرجلين يعنيان التقارير الاعتيادية عن الألغام، أي تقارير غير دقيقة عن مشاهدات بوساطة منظار الأفق أو احتكاكات محتملة لم يتم التحقق منها. وبعبارة أخرى، قصد الرجلان القول إن ليس هناك ما يستدعي اليقظة خارج المألوف.

شعر مكڤاي بثقة بالغة لدرجة أنه سمح لضابط الملاحة الذي يعمل تحت إمرته، الآمر جون جاني John Janney، باستلام وثائق المغادرة النهائية لاحقاً ومعالجة أية أسئلة بسيطة بقيت دون جواب.